د. مصطفى الفقى: (١)

عن النخبة.. والحاكم !

● العرب يعيشون - الآن - محطة بمحطة، وموقفا بموقف، ويوما بيوم!

● ما يجمعنا - اليوم - ليس حالة إجماع قومى، بمقدار كونها تدثرا بقوالب لفظية جامدة لا تخفى وراءها مضمونا متفقا عليه من جميع الأطراف !

● علينا أن نأخذ موضوع الإدارة الإسرائيلية الجديدة بقلق أقل، لأن القلق الذى وصل إلى حد الذعر فى بعض العواصم العربية سيسلبنا قدرة الفعل !

● هناك حالة إفلاس فكرى عامة على الساحة العربية تدعو كل طرف إلى التنقيب فى الماضى ونبش الذكريات !

● علينا أن نتعلم من الهنود حين لم يتجمدوا أمام « الغاندية » ووقفوا ايبتسمون للعالم، ولكنهم تحركوا ولحقوا بقطار التطور !

● حين يصبح التراث عامل يجذبنا إلى الوراء، فهذه جناية على التراث نفسه !

- ثقافة الديمقراطية غير موجودة فى عالمنا العربى بدءا من تعامل الأب مع أبنائه إلى نوع المشاركة السياسية المطروح على الناس!

- النخبة المصرية وجدت نفسها بين اختيارين، أحدهما أن تتحول إلى نخبة محدودة التأثير فى العالم العربى، والثانى أن تنسلخ عن مجتمعها وترتبط بالثروة!

- تكوين المصرى - حتى الآن - غير مؤمن بحركة الحزب السياسى، وهو يفضل العلاقة المباشرة مع الحاكم!

- تفسخ النخبة المصرية ناجم من أن الحياة العامة فى مصر لا تسمح لقانون الاختيار الطبيعى بأن يقدم القيادات!!

- حين كتبت (تجديد الفكر القومى) لم يكن فى خاطرى قصر حركة التجديد على تيار بعينه.

- مصر ليست مجموعة من المتطرفين أو أصحاب الفكر الخاص.. والجيل الجديد متعطش جدا للحوار.

obeikandl.com

منحنا الدكتور مصطفى الفقى المفكر القومى وسفير مصر فى النمسا وسلوفاكيا وسلوفينيا «السابق» شرف زيارة دار الأهرام الجديدة فى لندن، ومنحنا ـ فوق هذا وقبله ـ فرصة حوار شديد الثراء والحيوية، ناقشنا فيه اهتمامات النخبة وهموم الوطن، رؤية الحاكم، ورأى الناس.

والدكتور مصطفى الفقى هو ـ بالقطع ـ واحد من أبرز الذين يشكلون ملامح الحياة الثقافية فى مصر، بل وربما ملامح الحياة العامة، وهو يجمع فى شخصه خليطا من عناصر الديبلوماسى ـ و الأكاديمى والسياسى والمثقف، مع روح شعبية كاسحة، يتحكم فى ظهوره، ويسيطر عليها فلا تتجلى إلا بمقدار.

وهو واحد من أكبر محترفى فن «الملاغاة»، أى الحديث إلى الناس، كل بحسب اهتمامه، وكل بحسب ما تحصل من مستوى ثقافى أو فكرى.

هو قادر على مخاطبة الفلاحين فى الغيطان، أو أبناء البلد فى الأحياء الشعبية، كما هو قادر على مخاطبة هؤلاء الذين يتربعون فى جلال تحت لافتة (النخبة)، والذين جعلوا من التعالى أو الانعزال أو النأى صناعة وعلما!!

وهو بكل جوانب روحه وعقله، واحد من الذين يستطيعون «لم» الناس فى مصر، فى معرض الكتاب، أو فى أية ندوة أو محاضرة. . وهو أمر ـ لو تعلمون ـ عظيم فى هذا الزمان.

تناول الدكتور مصطفى الفقى فى ملاغاته الفكرية معى قضايا النخبة والحاكم، وطرح حدود رأيه ورؤيته بوضوح كامل، وتفصيل كبير، فجاء حواره قطعة فكرية شديد الإحكام.

وهنا نص الحوار:

- **ما بين الضغط على أكثر جوانب الحاضر الفكرى العربى إعتاما، ونعنى بهذا (الوعى المفقود والرؤية الغائبة)، كما حددت عنوانا لأحد كتبك، وما بين الضغط على أكثر جوانب المستقبل الفكرى العربى قابلية للإضاءة، ونعنى (تجديد الفكر القومى) كما حددت - أيضا - عنوانا لأحد كتبك، يبدو وكأن هناك فجوة أو مساحة خالية ما بين الحالتين أو الوضعين.. بحيث يمكن أن يتساءل المرء كثيرا ويتأمل كثيرا ويحار كثيرا، من أنى لنا أن نجدد الفكر القومى، ونحن أسرى لغياب الرؤية وفقدان الوعى؟**

○ أشكرك على دقة إحكام السؤال!

المسافة طويلة ما بين الطرفين، ولذلك فقد كان كل الذين يملكون حسا قوميا، يرفعون الصوت - فى السنوات الأخيرة - بالدعوة الملحة إلى تجديد الفكر القومى، ولا أقول إحياؤه، لأن الإحياء، هو أن يبعث الشىء كما كان، ولكن لنا تصورات - الآن - تجعل الفكر القومى، جد مختلف عن ذلك الطرح الذى ساد فى الستينيات، فى الحقبة الناصرية مثلا.

الدنيا تغيرت. . والعالم تحول.

الأمور فى سياقها، وتوقعاتها، تبدو مختلفة تمام الاختلاف، عما كان قائما من قبل، ومن ثم فمن الطبيعى أن ينطلق فكر التجديد من أرضية مغايرة، وبخطاب مختلف.

أنا ممن يعتقدون أن الأمة العربية تعانى غيابا فى الرؤية، فليس لنا تصور كامل، لما يمكن أن يأتى به المستقبل، وهى أمة أشبه بقوم يركبون قطارا ولا يعرفون آخر محطاته، على حد تشبيه مفكر صديق.

openarab.com

القضية الحقيقية هى أننا ليس لدينا حد أدنى من الإجماع القومى، على تصور واحد عن شكل المستقبل.. فقط، هناك عبارات عامة مثل: (السلام)، (الوحدة)، (القومية)، (الدعوة إلى التضامن)، (المصارحة)، (المصالحة)، ولكنها قوالب لفظية جامدة لا تخفى وراءها مضمونا فكريا، متفق عليه بين الأطراف العربية، وتلك - فى ظنى - قضية حقيقية، لابد لنا أن نواجهها، وأن نضع فى اعتبارنا أن النظرة الجزئية ومعالجة المشاكل - بشكل متقطع - لا تؤدى إلى نتيجة.

ولنأخذ الحركة الصهيونية - كمثال - فهى إستراتيجية طويلة المدى، قامت على رؤية منذ أكثر من قرن ونصف قرن، وجعلت لها هدفا طويل المدى، سعت إلى تحقيقه.

كل الأفكار الكبرى فى التاريخ تمثل رؤى، ثم تحققت، ونحن لا نستطيع - مثلا - أن نقول إن عبد الناصر - رغم أخطائه - لم تكن له رؤية، كما لا نستطيع أن ننكر على السادات أنه صاحب رؤية - رغم انتقاداتنا -، وباليقين نحن ندرك أن مبارك تتكون له - مع الأمة العربية فى هذه المرحلة - رؤية، نرجو أن تستقيم، وأن تستمر على المدى الطويل.

ولذلك فإن حديثنا عن تجديد الفكر القومى، يبدو - الآن - وكأنه من الأولويات المطروحة، فنحن بصدد أمة تسعى إلى (الحد الأدنى من التضامن)، وقد نجحت - إلى حد كبير - فى تحقيق ذلك فى القمة العربية الأخيرة فى القاهرة.

وهى أمة يمزقها التطرف الدينى والعنف السياسى، وهى - كذلك - أمة تواجه تحولات ضخمة دولية وإقليمية لم تكن مهيأة لها بشكل مسبق.

ثم جاء ما هو أكبر وأضخم، ألا وهو وصول حكومة إلى السلطة فى إسرائيل، لم يكن متوقعا - لدى كل الأطراف - وصولها، لأسباب تتصل بالرغبة فى أحادية النظرة، فقد تصورنا - ووقع الأمريكيون فى نفس الخطأ - أنه مادام

بيريز يتجه إلى المضى فى مسيرة السلام، فهو الذى سيستمر، إلا أن المجتمع الإسرائيلى والرأى العام الإسرائيلى، أفرزا حكومة مختلفة، وتتقدم هذه الحكومة بأطروحات متشددة للغاية، تبدو فيها متجاهلة لما تم فى السنوات الأخيرة، ومع ذلك فعلى العرب أن يتعايشوا مع هذه الحقيقة، وألا يشملهم عنصر المفاجأة بشكل يجعلهم يعتقدون أن كل شىء قد انهار، وأن عليهم أن يبدأوا من الصفر.

هناك مثل شعبى مصرى يقول: (الغربال الجديد له شده). ومن هنا لا أتصور أن أفكار نتنياهو وآراءه التى يطرحها ـ الآن ـ هى التى سوف تستمر، كما لا أتصور أن الآراء التى تنطلق من العواصم العربية ـ الآن ـ تعبر (بدقة) عن الواقع العربى الراهن.

نحن فى فترة الجس، وبالونات الاختبار، والتصريحات.. وأعتقد أن الأمر سيختلف بعد ذلك.

لن يكون نتنياهو ـ بالضرورة ـ هو نفس نسق شخصية بيريز، ولكنه قد يمضى على نفس المنهج على المدى الطويل، وعلينا أن نأخذ الموضوع بكثير من الحكمة، وأن نقلل من عنصر القلق، الذى وصل إلى حد الذعر فى بعض العواصم العربية، لأن هذا القلق سيسلبنا قدرة الفعل، وسيجعل منا ـ إذا استمر ـ أسرى لرد الفعل.

إسرائيل هى إسرائيل منذ نصف قرن، وقد واجهناها بكل أساليبها المتطرفة، والمتشددة، والعنيفة، والتوفيقية.. لا جديد.

وسوف تمضى مسيرة السلام، قد تتعثر، ولكنها سوف تمضى، ويجب أن يدرك العرب أن هناك عناصر أخرى فى العالم حريصة على السلام العربى الإسرائيلى، أكثر من حرص العرب، وأكثر من حرص إسرائيل أيضا، سواء كانت أوروبا أو الولايات المتحدة أو غيرها.

الاستقرار فى الشرق الأوسط حيوى، وهذه القوى الدولية صاحبة مصلحة

حقيقية فى الوصول إلى تسوية سلمية، المهم هو أى سلام يريدون، لأن هذا هو عنصر الاختلاف بين أطراف الأزمة المباشرين.

إفلاس!

● يخيل إلىّ - يا دكتور مصطفى - أننا إذا ارتددنا إلى المقابلة بين عنوانى الكتابين أو بين القضيتين، أن هناك عنصرا يمكن أن يمثل جسرا بينهما، وهو حالة (السلفية) العربية، التى لمستها - غير مرة - فى حديثك الآن، عن الإرهاب، وعن التطرف، وعن ضرورة (تجديد) وليس (إحياء) الفكر القومى.. إلى ماذا ترجع هذه الحالة.. ثم كيف يمكن للأمة العربية أن تواجهها؟

○ أنا معك تماما فى هذا التوصيف، وفى هذا السياق أعود - أيضا - إلى الأمثال الشعبية القديمة، ومنها مثل يقول: «إذا أفلس البقال بدأ البحث فى دفاتره القديمة»!!

هناك حالة إفلاس فكرى عامة على الساحة العربية، تدعو كل طرف إلى التنقيب فى الماضى ونبش الذكريات.

خذ الأحزاب المصرية كمثال فى هذا الإطار، وستجدها جميعا تقف على مرجعيات تنتمى إلى الماضى.

مرجعية الوفد تجمدت عند الفترة من ١٩١٩-١٩٥٢، ومرجعية الحزب الناصرى توقفت عند فترة جمال عبد الناصر، وحزب العمل ارتبطت مرجعيته بحركة مصر الفتاة، مع بعض التطورات التى ألحقت بقطاره عربة دينية، وأخرى عربية!

القوميون لازالوا يتحدثون بمنطق الخمسينيات والستينيات، على الرغم من أننا إذا أردنا الصرامة والإحكام لفكر ما واتسامه بسلامة الإطار، فإن ذلك لا يعنى - أبدا جمود القالب.

العرب يتصورون ـ دائما ـ أن التراث عبء على أكتافهم يجب أن يحملوه معهم إلى كل مكان!

بينما تجربة آسيا تختلف تماما، رغم أن آسيا لها تراث قديم، ومجموعة من القيم والتقاليد التى قد تفوق ـ كثيرا ـ ما نعانى منه، ومع ذلك فقد فصلوا بين هذه التقاليد، وحركتهم مع العالم، وقد حقق هذا الفصل نجاحا حقيقيا.

وأسوق ـ هنا ـ المجتمع الهندى كنموذج، وقد عشت أربع سنوات من عملى الدبلوماسى، مستشارا للسفارة المصرية فى الهند منذ عشرين عاما، وعنيت ـ كثيرا ـ بدراسة جوانب التجربة الهندية آنذاك.

لقد حافظوا على جوانب الشخصية الهندية داخل مجتمعهم، إلى درجة التشدد. ولكن هذه الشخصية، وعناصرها، وسماتها، لم تحجبهم عن التعامل مع العالم والتطور.

لم يعرفوا الجمود، ولم يقفوا أمام «الغاندية» يبتسمون للعالم، ولكنهم تحركوا، ليصبحوا دولة فضاء، ودولة ذرة، ودولة اكتفاء ذاتى فى الحبوب الغذائية لأكثر من مليار نسمة.

علينا أن نفعل نفس الشىء فى العالم العربى، أن نؤمن بالثوابت، وألا نهمل المتغيرات. . الثوابت هى تراثنا، وثقافتنا وحضارتنا، وهى مفردات تستحق الاحترام، والتقدير، والتقديس أحيانا (إذا ما لمسنا الجانب الروحى فى هذا التراث)، ولكن هذا لا يعفينا من مواكبة المتغيرات فى مسيرة العالم.

حين يصبح التراث عامل يجذبنا إلى الوراء، فهذه جناية فى حق التراث ذاته. . التاريخ لا يعيد نفسه فى نفس السياق، ولكنه يعيد نفسه بنفس العبر والعظات، ولا يجب أن نتصور أننا حين نصبح أسرى للماضى، أننا يمكن أن نتقدم نحو المستقبل.

● هناك جزئية فى هذه السلفيات السياسية التى تعانى منها كل

التيارات الفكرية، هى التى نعنى بمناقشتها معك فى هذا الإطار، وهى أنها سلفيات غير ديمقراطية - بالضرورة والطبيعة معا - فحين نتحدث عن جذور حزب العمل فى (مصر الفتاة) فنحن نتحدث عن حركة فاشية أو شبه فاشية، وحين نتحدث عن حزب الوفد فنحن نتحدث عن وكيل شعبى عن الأمة، ليس طرفا فى تعددية سياسية بالمعنى المتعارف، وحين نتحدث عن التيار الناصرى، فنحن نتحدث عن دولة الحزب الواحد ذات السمات الخاصة بالتحول الثورى، وحين نتحدث عن حركات ديمقراطية بالمعنى المفهوم، فثمة تأثير متبادل بين طبيعة هذه الحركات وأسلوب ممارستها للإدارة داخلها، الذى أصبح يفتقر إلى الحد الأدنى من الديمقراطية الداخلية.. وهنا أتصور أن هذه السلفية السياسية غير الديمقراطية تسلب التجربة السياسية المصرية الكثير من حيويتها.. كيف يمكن أن نتواءم - والحال - كذلك مع شكل الديمقراطيات فى العالم؟

○ أوافقك - تماما - على أن البعد الديمقراطى فى الفكر العربى عموما، إن لم يكن غائبا تماما فهو يتسم بالضعف، وأحيانا أتأمل وأفكر فى أسباب ذلك.

وأذكر أن أستاذى فى جامعة لندن، حينما كنت أدرس للدكتوراه قال لى مرة: «إن الإسلام يتحمل جزءا من هذه المسئولية، لأنه قدم نظرية سياسية متكاملة فى نظر أصحابه، فكانت الشورى بديلا تاريخيا رفيعا للديمقراطية، ومع ذلك فلا هم حققوا الشورى الحقيقية، ولا هم استطاعوا أن ينقلوا الديمقراطية الغربية».

كانت هذه وجهة نظر أستاذى فى مطلع السبعينيات، والتى أرتد لأفكر فيها من آن لآخر.

أنا أفهم أن الديمقراطية لها ثقافة خاصة، وثقافة الديمقراطية ليست موجودة

لدينا فى العالم العربى، بدءا من تعامل الأب مع ابنه، والأم مع أولادها، والمدرس مع تلاميذه فى المدرسة، وانتهاء بنوع المشاركة المطروح على الناس.

هناك حالة من حالات القهر والقمع والأبوية الشائعة فى المجتمع العربى، وقد حرمت ـ هذه الحالة ـ الجماهير العربية فى النهاية القدرة على المشاركة السياسية الواسعة.

وأنا ـ هنا ـ لا أتحدث عن نموذج عربى بعينه، ولكننى أتحدث عن الأمة العربية عامة.

تاريخنا يبدو صاحبا لوصاية أبوية على مجتمعاتنا، وحكامنا تاريخيا ـ وخصوصا الشخصيات ذات الأبعاد الكاريزمية والتاريخية ـ نجحوا فى أن يحققوا درجة من درجات هذه الأبوية، وأصبح الأصل فى دراسة أحوال العرب أن الحاكم صاحب الكاريزما يتحدد تأثيره ـ دائما ـ على حساب الحركة الديمقراطية.

لقد اقترنت حركة المد العربى القوى فى الخمسينيات والستينيات بأبوية الحاكم، وبشخصية عبد الناصر الطاغية وبكاريزما هذا الزعيم، وكان ذلك على حساب الديمقراطية.

أما حين نتعامل ـ الآن ـ مع حكام عاديين، لم يضفوا على أنفسهم صفات استثنائية خارقة، نستطيع أن نتقدم على طريق الديمقراطية. فلا يضرب الديمقراطية فى مقتل سوى الشخصية الطاغية للحاكم، القائمة على الاستناد إلى قدر كبير من الشعبية.

لم يكن أحدا يستطيع أن يجادل مع عبد الناصر الذى تمتع بأكبر شعبية حاكم عربى فى العصر الحديث، على الرغم من كل ما لحق نظامه من خطايا وأخطاء.

الديمقراطية.. ثقافة، فحين تنشئ أولادك على الحوار والحديث، وحين يبنى المدرس جيلا من المتعاملين مع نسبية الحقائق وليس إطلاقيتها، فنحن ـ حينئذ ـ نكون بصدد جيل ديمقراطى.

وسأذكر لك مثلا - فى هذا الإطار - فالكثير جدا من الذين لا يؤيدون الحزب الوطنى الديمقراطى فى مصر، يصوتون له عند الاقتراع السرى، صدق أو لا تصدق.. على الرغم من أن الصندوق مغلق وأمامه ستارة.

والسبب فى هذا، أن هناك إحساسا عاما بفكرة الأبوية، فالذى يحتل موقع القدرة هو الأب، ومن لا يجد أبا فليصنع له أبا.

وهذا هو الحزب الذى سينجز ويحل المشكلات، ومن ثم فهؤلاء يفضلون أن يكونوا فى الأمان Safe side، وينتخبون هذا الحزب الذى لا يؤيدونه !!

هذا ميراث تاريخى نشأ من العقد غير المكتوب بين المحكوم والحاكم فى مصر، والتراث الاجتماعى فى بلدنا قائم على هذا العقد الذى يطلق يد الحاكم فى الحياة السياسية، بشرط ألا يمس الحاكم رغيف عيش المحكوم أو قطعة أرضه.

وأنا أضرب مثلا بمصر باعتبارها الدولة العربية الأكبر وصاحبة التقدم على الطريق الديمقراطى أكثر من غيرها من شعوب المنطقة العربية، وبالتالى فإن ثقافة الديمقراطية - إلى حد كبير - ليست هى بنت التقاليد العربية، وحين نتمكن من خلق هذه الثقافة أستطيع أن أؤكد لك أن الأمور سوف تختلف تماما، وكما تفضلت - فى سؤالك - فسوف تختفى الأفكار القمعية، والحركات القهرية، ويظهر البعد الديمقراطى فى الحياة.

وهنا أريد أن أنبه القارئ العربى إلى أن الديمقراطية وقضايا حقوق الإنسان كانت سلاحا - فى السنوات الأخيرة - فى أيدى الولايات المتحدة الأمريكية والغرب عموما، والآن تلقفت إسرائيل - فى ظل حكومة نتينياهو - هذا المنطق، لكى تضع نوعا من الوصاية المفتعلة على الحركة العربية والتقدم العربى عموما، وتربط بين قضية السلام والاستقرار فى المنطقة، وبين تنامى الديمقراطية فى الأنظمة العربية ومراعاة حقوق الإنسان، وهى قضية يطول انتظارها، فضلا عن أن هناك أكثر من معيار لحقوق الإنسان، ويكيل فيها العالم بأكثر من مكيال، وأن حقوق الإنسان معايير نسبية تحددها الشعوب وفقا

لظروفها، ثم ـ قبل وبعد هذا كله ـ فإن إسرائيل هى أكثر شعوب المنطقة ـ تاريخيا ـ انتهاكا لحقوق الإنسان.

هذه هوامش على دفتر الديمقراطية، وعلى هامش السلفية السياسية، أراها جديرة بالتأمل والمناقشة، كلما أثيرت هذه القضايا، سواء بطرق صحيحة أو مغلوطة.

زاويتان !

● **لعلك واحد من أخبر الخبراء فى شئون الجماعة الثقافية المصرية، بحكم رؤيتك لها من زاويتين يندر الجمع بينهما، فأنت مثقف تنتمى ـ بالطبيعة وبالضرورة ـ لهذه الجماعة الثقافية، وتعرف لغتها، والطريقة التى تبلور عبرها أفكارها، أو تتعامل مع حقائق ما يحوطها من ظروف سياسية أو اجتماعية، أو تحدد ـ من خلالها ـ حجم ارتباطها بالخارج الإقليمى أو الخارج الكونى. ثم إنك خبرت أحوال هذه النخبة من موقع سياسى آخر، يكفل مراقبة نوع علاقتها بالسلطة الوطنية ومداخل اقترابها من هذه السلطة. ما هى ملامح أو قسمات النخبة الثقافية المصرية، كما رأيتها وتأملت أحوالها من الزاويتين؟**

○ النخبة المصرية هى النخبة الأكثر تقدما فى العالم العربى لسنوات طويلة، وهى التى قادت حركة الفكر والثقافة، وصهرت فيها عناصر عربية وفدت إلى مصر، فى البوتقة المصرية تحت ظلال عربية واحدة.

وقد فوجئت هذه النخبة، سواء منها من كان فى الحكم أو خارجها، بأن هناك على الساحة العربية زحف ثقافى يتقدم، ليس نتيجة تخلف مصر، ولكن نتيجة تقدم الآخرين.

فمنذ خمسين عاما ـ على سبيل المثال ـ كان فى العالم العربى جامعة واحدة هى جامعة القاهرة. أما الآن فإن كل دولة عربية لديها أكثر من جامعة.

ماذا يعنى هذا؟!

هذا يعنى أن قدرة مصر فى التأثير على العالم العربى ـ من خلال الفكر والثقافة ـ لم تعد مثلما كانت، وعلى من يفكر فى مستقبل مصر أن يضع هذا فى اعتباره. لقد كانت لدينا طبقة ضخمة فى الدول العربية، من أولئك الذين تخرجوا من المدارس والجامعات المصرية، وكل من تعلم فى بلد ـ كما تعرف ـ فإنها تعتبر وطنه الثانى. وهناك أمثلة كثيرة من الخليج وشمال إفريقيا والشام، لهؤلاء الذين تعلموا فى مصر، أو حصلوا على الثقافة من مصادر مصرية (المجلة ـ الجريدة ـ الفيلم ـ الأغنية) فأصبح ولاؤهم لمصر !

ولكن اليوم، بدأت هذه الأدوات فى التقلص، وسوف يؤثر ذلك شئنا أو لم نشأ على النخبة المصرية، فإما أن تتحول إلى نخبة محلية محدودة التأثير على المستوى العربى، وإما أن تنسلخ عن المجتمع المصرى، وتعتبر جزءا من النخبة المتقدمة التى ترتبط بفكرة الثروة.

التعبير الدقيق لكلمة الأرستقراطية، هو أنها مزيج من الثروة والثقافة، وإذا انعزلت النخبة المصرية وارتبطت بمفهوم الأرستقراطية، فإنها ـ ببساطة ـ تكون قد حجبت نفسها عن الناس، وحجبت الناس عنها.

النخب فى العالم العربى لم تمر بنفس الظروف التى مرت بها النخبة المصرية تحديدا، فالنخبة المصرية عانت من حالات الارتفاع والانخفاض، والانتعاش والانكماش فى الخمسين عاما الماضية، وقد أثر هذا عليها تأثيرا كبيرا، بحيث أصبحت هذه النخبة تحمل على كاهلها لافتات تصف ظواهر مصاحبة لها، أو داخلة فى تكوينها مثل: (عزلة المثقف)، و (قضية الولاء والثقة)، و (عدم القدرة على التفاعل مع المجتمع)، و (الهجرة الزمنية بالتطرف)، و (الهجرة المكانية بترك الوطن).

وأنا ألاحظ أن الكثير من العناصر الممتازة من المثقفين لا تقبل على الحياة السياسية حتى لو أتيحت لها الفرصة.

إذن، فالنخبة تعيش فترة قلق تجعلها غير قادرة على التواؤم مع الأجواء العامة فى الوطن أو على اتساع العالم العربى كله.

ومن هنا فقد لاحظت - فى السنوات التى عملت فيها قريبا من صنع القرار السياسى فى مصر - أن هناك عزوفا عاما من العناصر المتميزة عن الدخول فى الحياة السياسية، وفى هذا جزء من رواسب الماضى، سواء بإيثار السلامة، أو بعدم الإيمان بفكرة العمل العام.

لدينا - على مستوى النخبة فى مصر مستويين، لابد أن نفرق بينهما - أولهما مستوى الذين يعتركون الحياة السياسية، وهؤلاء - فى معظمهم - مجموعات موروثة من العهود الثلاثة الأخيرة على الأقل، وثانيهما مجموعة أخرى من المثقفين المصريين احترفت النقد السلبى، واكتفت به من دون الانخراط فى العمل العام، بدعاوى كثيرة - مثلما أسلفت من قبل فى تحديدها - ولكن هذه النخبة الثانية المتعلمة والمثقفة هى الأكثر ارتباطا بحركة المجتمع الدولى، وبتطور الثقافة العالمية، وبفهم المتغيرات الدولية، ولكن قدرتهم على العمل العام غائبة، نتيجة غياب التدريب السياسى، وضعف الأحزاب، التى كان يجب أن تكون مدرسة لتخريج الكوادر، ولكنها لم تفعل، وبالتالى لو أن هناك مثقفا رفيع الشأن يريد أن يلعب دورا ما فى الحياة السياسية فى العالم العربى، أو على المستوى المصرى على الأقل، فمن أى طريق يبدأ؟!

أيبدأ بأن يضع يديه إلى جانبه منتظرا أن يُختار لوزارة؟ أيبدأ بأن يتطلع إلى حزب يتفاعل مع أفكاره وينخرط فيه؟

إن العمل الحزبى فى مصر ضعيف، وليست هذه خطيئة النظام.

وأنا أعتقد أن تكوين المصرى - إلى حد كبير حتى الآن - لازال غير مؤمن بمفهوم حركة الحزب السياسى، وهو يفضل عليها العلاقة المباشرة مع الحاكم!!

حزب الوفد الذى يتشدق البعض به من (١٩١٩-١٩٥٢) كان ثوبا فضفاضا يعكس الحركة الوطنية، ولا يعكس التنظيم الحزبى بمفهومه المعاصر، فلم يكن فيه حركة تنظيم، أو كوادر، أو قيادات، وإنما كان فيه - فقط - شعبية سعد زغلول ثم مصطفى النحاس، والتفاف الناس وراءهما، وخصوصا فى القرى، والمدن الصغيرة فى ظل أفكار متصلة بالجلاء والاستقلال والدستور.

لقد كان الوفد ثوبا فضفاضا ضم كل القوى السياسية المختلفة، والذى يؤكد كلامى هو طبيعة الانقسامات التى جعلت أحزاب الأقلية كلها تخرج من عباءته من أحمد ماهر إلى مكرم عبيد.

والاتحاد الاشتراكى الذى أقامه عبد الناصر، كان يبدو - بشكل أو بآخر - نوعا من المقابلة مع حركة الوفد.. لقد كانت الأحزاب فى مصر حركات فوقية، وربما كانت قيمة الوفد - فى هذا السياق - هى أنه بدأ من أسفل بحركة التوقيعات والتوكيلات الشهيرة.

على أية حال، فإن المثقف المصرى سوف يجد نفسه فى حيرة حقيقية بشأن الباب الذى يجب أن يطرق، والدرب الذى يجب أن يسلك.

ومن هنا أصبحنا نجد مجموعة من المثقفين يندرجون تحت ما أسميته أنت - من قبل - بـ «المشتاقين»، ومجموعة أخرى من العازفين والمبتدعين، ومجموعة ثالثة من المهاجرين زمانا أصحاب الفكر السلفى، والمهاجرين مكانا المترفعين عن الحياة فى مصر، والساعين إلى الهجرة إلى مجتمعات أكثر رقيا.

التفسخ الحقيقى فى عناصر النخبة المصرية منشأه أنه لا توجد عملية اختيار طبيعى فى الحياة العامة تسمح لقانون الانتخاب الطبيعى Natural selection، بأن يقدم القيادات !!

وأنا أذكر حين عملت فى بريطانيا فى مستهل حياتى، أن حضرت مؤتمر حزب المحافظين فى بلاك بول فى أوائل الثمانينيات، ورأيت تاتشر وزيرة مغمورة يتم الدفع بها إلى الصفوف الأولى، ولاحظت - بدقة - عمليات الفرز السياسى داخل

الحزب، وتقديم القيادات، وتحديد من يتقهقر، ومن يتقدم، وكيف أن المؤتمرات السنوية للأحزاب ليست مناسبات فلكلورية احتفالية لتحية الزعيم وتأييده، كما يحدث عندنا فى الأحزاب المختلفة، ولكن هذه المؤتمرات مناسبات للحساب والمراجعة، وتقديم القيادات، وتوارى أخرى.

وكتبت - يومها - لوزارتى أقول: إن مستقبلا مهما ينتظر هذه السيدة، ويبدو أن زعامة الحزب سوف تؤول إليها بعد سنوات قريبة.. وقد كان!

هناك ميكانزم فى هذه المؤسسات، وهناك قواعد للعبة السياسية، وإعمال للقانون الطبيعى فى الاختيار.

يوم أن نتمكن من إعمال القانون الطبيعى فى مصر على كل المستويات، فسوف نكون فى صف الدول المتقدمة، وبغير جدال فإن تعطيل تأثير هذا القانون هو بمثابة تركة طويلة المدى من تاريخنا، وهى السبب الرئيسى فى اختفاء القدرات وغياب الكفاءات وإهدارهما معا.

● **لا أظنك - يا سعادة السفير - حين كتبت (تجديد الفكر القومى) كنت تختزل مهمة التجديد لتقصرها على تيار واحد، إذ إن طرحك - بالضرورة كان يمتد ليشمل مواجهة السلفية على كل جبهات التيارات الفكرية المصرية أو تمثيلاتها الحزبية. ما هى - فى رأيك - الشروط التى تكفل هذا العبور المأمول من حالة يأسرنا فيها ماضينا إلى حالة نلتحق فيها بالمستقبل؟**

○ نعم.. حين كتبت (تجديد الفكر القومى) لم يكن يدور بخاطرى قصر حركة التجديد على تيار بعينه، ولكننى كنت أعتقد أن التجديد لا يعنى التجديد فى الفكر، أو فى الأشخاص، أو فى أساليب الحياة فقط، ولكنه فى تغير النظرة تجاه ما تعودنا أن نفكر به، فأنا ضد فكرة المسلمات الباقية، ولست ضد الثوابت، وإنما هناك حقائق وقرت فى تاريخنا، ولازلنا أسرى لها حتى الآن، وهى كثيرة ومحورية، منها فهمنا المغلوط للإسلام وسماحته، ومنها فهمنا الزائف للحضارة

والثقافة والتاريخ، ومنها فهمنا العاطفى للقيادات والزعامات، ومنها فهمنا الضبابى التائه لعالم اليوم ومستقبله.

كل هذه الأمور كنت أبحث عن نظرة تجديدية تعيد النظر فيها، كما فعل الإمام المجدد محمد عبده فى الطرح الإسلامى فى فترة الإظلام فى القرن الماضى. وإذا كان محمد عبده قد نجح فى ذلك، فكيف ما تيسر له منذ مائة عام لا يتيسر لفقهاء المسلمين الآن!

الإسلام دين ثابت حنيف عظيم، ولكن رؤيته متجددة على مر العصور، وهذا أحد جوانب عظمته.

وعلى المستوى القومى، أنا ضد الأصنام الفكرية، وضد عبادة الأفراد، وضد الإحساس بأن الثورة العربية ترتهن بقيادات محددة، فهى ثورة فى التفكير، وفى الأخذ بالأساليب العلمية، وفى اللحاق بركب الحضارة.

ويكفى أن أقول لك: إن إسهام العرب فى حضارة العصر يكاد يكون محدودا أو معدوما، وقيمة الشعوب تكاد تتحدد فى إسهامها فى حضارة العصر، فلماذا تعطلت مسيرتنا، لقد كانت مصر فى العشرينيات مساوية فى التقدم فى بعض مناحى الحياة السياسية والاقتصادية (بنوك - برلمانات - مؤسسات قومية)•ببعض دول جنوب أوروبا، فقد كنا لا نقل عن اليونان، وكنا أفضل من البرتغال.

لقد بدأنا النهضة بنفس الخطوات مع اليابان، لماذا هذه العطلة؟

لأننا مغرمون بتأمل الماضى، وبالتدقيق فى الأفكار والمعيشة فيها، وأصبحنا - كما قيل بالضبط - لا نعانى من فلسفة الفقر، ولكن من فقر الفلسفة.

الفلسفة هى النظرة الشاملة للأمور، التى أصبحت غائبة لدينا. يجب أن تتبلور لدينا هذه الرؤية، وأن نتحصل على الإجابات الكاملة عن كل القضايا المطروحة، وأن يوجد لدينا حد أدنى من الفكر تجاه هذه الإجابات، وفى إطار من الاختلاف المتعارف عليه، وفى هذا السياق أكرر قول أبى حنيفة:

«قولى صواب يحتمل الخطأ، وقولك خطأ يحتمل الصواب»؛ فلا داعى لأن يحدث ـ عندنا ـ نوع من سيطرة فكر على فكر، ودع الأمور تجرى فى أعنتها .

لابد أن تسير أمور حياتنا بشكل طبيعى وليس بقرارات فوقية، وتنظيمات علوية.

مثل هذا الأسلوب المغرق فى تأمل الذات والارتباط بالتراث لن يؤدى إلى نتيجة فى العالم العربى، ومع ذلك فأنا أقول: إن الصورة ليست متشائمة على النحو الذى نراه، فالعالم العربى فيه ـ الآن ـ قوى وتيارات عديدة تبشر بالأمل، وتسهم فى تعرف المريض على أعراض مرضه، وتشخيصها بشكل دقيق، وهذه هى أول خطوات العلاج.

لا يجب أن نستسلم لما كان قائما، وأن نفكر من جديد، وأن نتواكب مع حياة العصر، وأن تفيقنا الصدمة الحضارية ولا تقتلنا.

عروبة !

● **لم تفقد ـ أبدا ـ إيمانك بفكرة العروبة، إلا أن هذه الفكرة واجهت تساؤلات حول قابليتها للاستمرار، ضمن المراجعات، وعمليات الفرز العجيبة، التى تجبرنا على اختبار الثوابت، ومحاولة النظر إلى هذه الثوابت بوصفها اكتشافات تقتضى الدهشة وفغر الأفواه. إلام تستند ـ فى إيمانك بفكرة العروبة فى عالم متغير ـ وكيف تقيم هذه المحاولات المستعرة التى تتكلم عن إعادة النظر وطرح البدائل تحت مسميات مختلفة؟**

○ إيمانى بفكرة العروبة ليس إيمانا عاطفيا، أو نظريا، أو هو مجرد حنين لفترة تاريخية عشتها، فأنا ممن يؤمنون بأن العروبة شىء قابل للترجمة العملية واليومية. لقد رأيت فى الهند ديانات مختلفة، وثقافات متعددة، وفلسفات

متضاربة، ولغات متباينة، ومسافات واسعة، ولكن الاتحاد الهندى حدث وظهرت دولة الهند الديمقراطية المتحدة فى إطار الضرورة.

إذن لو أدرك العرب، أن نظرية الضرورة تملى عليهم التكاتف والتضامن - بغض النظر عن الشكل الدستورى - فسوف نكون فى وضع أفضل بكثير.

لدينا الكثير جدا من مقومات الوحدة (اللغة الواحدة - الديانات الواحدة - الوحدة الجغرافية - الفهم المتبادل. . فالمقال والنكتة والأغنية يفهمون من الخليج إلى المحيط)، ومع ذلك فإن المشارب مختلفة، والوجهات متباينة، بما يوحى أن هناك خطأ فى حياتنا، فنحن نبحث ونفكر فى اليوم، ولا نفكر فيما هو قادم.

إيمانى بالعروبة - مرة أخرى - ليس إيمانا عاطفيا، ولكننى أؤمن بأن العروبة تقوم على نظرية المصلحة، وعلى مبدأ الضرورة، وأنه لابد لنا أن نعترف بأن العروبة ليست كيانا هلاميا غامضا.

إن لى ملاحظات قومية وأمنية على اجتهاد عبد الناصر القومى، رغم عظمته وشموخه، أولها أنه أهدر - إلى حد كبير جدا - تصوره لحق ووضع الأقليات فى العالم العربى، فخلق لديها مخاوف لا مبرر لها، وثانيها أنه أقام على الساحة العربية محور علاقات قام على أسس أيديولوچية تتعارض - بالضرورة - مع الطرح القومى، فانقسم العالم العربى بين تقدميين ورجعيين، فثارت المخاوف التاريخية المعروفة فى الخمسينيات والستينيات، ثم إنه - أيضا - استخدم الصراع العربى/ الإسرائيلى استخداما مبهما، ولم يضع العرب فى صورة واقعية حقيقية، فقد دخلنا حرب ١٩٦٧ وأمامنا تصور واحد لا بديل عنه، وهو الانتصار، وإنهاء الوجود الإسرائيلى، فى حين أن الواقع الذى حدث كان شيئا مختلفا تماما فكانت صدمة جماهيرية عربية كبرى، أثرت على أجيال أربعة جاءت بعد ذلك.

وكذلك، فإن عبد الناصر انتقل - وبسرعة شديدة - من محور وادى النيل فى بداية الثورة، كميراث لحركة التحرر الوطنى والحركة الوطنية فى مصر، إلى

محور علاقة مع الشام وسوريا بالتحديد.. وقد كنت أتصور أن يمضى فى المحورين معا، وألا يكون أحدهما على حساب الآخر، ولازلت أعتقد أنه من الخطايا الكبرى لثورة ٢٣ يوليو، أنها لم تتعامل مع العلاقات المصرية/ السودانية بشكل مؤسسى وفلسفى طويل المدى يسمح لها بالاستمرار والاستقرار.

ناهيك عن غياب البعد الثقافى للثورة، فقد كانت الثورة فى مجملها - رغم أنها طرح وطنى قومى ناجح - تفتقر إلى الرؤية الثقافية الواضحة (إسقاط للتماثيل - تغيير لأسماء الشوارع - إهدار للقصور). وهذه كلها أمور غير مسبوقة فى تاريخ الثورات، وهذه أيضا سلبية من سلبيات الثورة، ولكن هذا - على أية حال - لا ينتقص من القدر الضخم لجمال عبد الناصر فى تاريخ المنطقة العربية، وتاريخ العالم الثالث، والحركة الدولية المعاصرة عموما.

● **حينما سألتك عن انتمائك العربى، فقد كنت أركز على هذه الدعاوى المعاصرة التى تجعل من فكرة القومية العربية متقاطعة متصادمة مع فكرة التطور الديمقراطى، ومتقاطعة متصادمة مع فكرة تحقيق السلام فى المنطقة، فكيف تقوّم هذا الرأى؟**

○ إذا انتظرنا حتى تتحقق الديمقراطية، فأنا أعتقد أن أحفادنا، وأحفاد أحفادنا لن يلحقوا بهذا الركب، كما لو تصورنا أن علينا أن نؤجل التضامن العربى بعد الوصول إلى السلام، فسوف نحصل على سلام المنقسمين وليس سلام المتضامنين، ومن ثم فسوف نؤبد نتيجة الانقسام على وضع قابل للتضامن فى المدى الطويل.

أنا لا أطالب بوحدة دستورية أو اندماجات بين الدول، ولكننى أطالب بحد أدنى من التنسيق، ويحضرنى - فى هذا - النموذج الأوروبى، حين كانت كل دولة موجودة، ولم تذب فى الكيان الموحد (بريطانيا هى بريطانيا.. والنمسا هى النمسا) بحكوماتها، وثقافاتها، ولغاتها المتعددة، ولكن هناك حد أدنى من التنظيم، سواء بالنسبة للنظام الجمركى، أو نظام السفر والانتقال أو جوازات السفر والانتقال، أو حركة الطيران، وفى كل يوم يضيفون جديدا، وبشكل

علمى مدروس يراعى ظروف كل دولة، ويترك باب الانضمام مفتوح طواعية لكل دولة حين تكون قادرة عليه.

أنا أتحدث عن شكل من أشكال التنسيق السياسى والتكامل الاقتصادى والتوحد الثقافى، والتعايش الذى يجمع العرب، ولا أتحدث عن دولة الوحدة أو عن كونفيدرالية، أو فيدرالية، وهو الأمر الذى أعتقد أن مقوماته قائمة جدا ومتمثلة فى هذا التجانس البادى بين مصر والشام ودول الخليج والسودان، والذى يعطينى النموذج الأوروبى بشأنه أملا كبيرا مازال.

ندوات:

- **تكون ندواتك فى معرض القاهرة الدولى للكتاب كل عام، مناسبات حاشدة، يتجمع فيها جمهور ضخم ينتمى إلى كل التيارات الفكرية، وإلى كل الأجيال الفاعلة، بما يجعلها ـ واقعيا ـ مناسبات للقاء والالتقاء القومى المصرى العام.. فى تصورك ما هى عناصر معادلتك التى تسمح بتخلى هذه الأطراف عن روح الاحتراب السائد بينها؟ وهل يمكن أن يتسع المجال أمام عناصر هذه المعادلة لتصبح منهجا عاما؟**

○ لن يتأتى ذلك إلا بظهور جيل يؤمن بالحوار، وبالرغبة فيه، وسوف أصدقك القول، فقد اكتشفت أن الأجيال الجديدة ـ فى مصر ـ متعطشة تماما للحوار السياسى، وراغبة فيه، وأن الصورة أفضل ـ بكثير ـ مما نتصور، فمصر ليست مجموعة من المتطرفين أو أصحاب الفكر الخاص.

مصر فى أغلبها فكر قومى/ مصرى، يعرف الإسلام الصحيح، ويعرف التوجه القومى الدقيق.

المصرى ـ تاريخيا ـ هو صاحب المسئولية القومية والإحساس بها، لم يفرط فيها أبدا، وقد لا يكون المصريون سياسيين كغيرهم من الشعوب العربية، ولكنهم قوميون بالضرورة وبالطبيعة، باللسان العربى، وبالأزهر الشريف، بالفكر والثقافة، وبالتراث والإعلام، والوجود التاريخى.

ما أراهن عليه ـ صراحة ـ هو ألا يحدث نوع من خلط الأوراق أو عمى الألوان، بحيث لا يقوم الذين يرفضون الحقبة الناصرية لبعض ملاحظات عليها تتصل بالديمقراطية وغيابها.. لا يقومون برفض إيجابياتها مثل التوجه القومى، والإيمان بأمة عربية واحدة، بالضبط مثل الذين يهاجمون عصر السادات فيرفضون ـ تلقائيا ـ العمل نحو ديناميكية السوق، أو الانفتاح السياسى.

هذه قضية كبرى.. فنحن حديون مبالغون، فإما نقبل الأشياء برمتها، أو نرفضها برمتها.

إن علينا أن نقوم بعملية انتقاء إيجابية فى تاريخنا الحديث، تصنع ـ فى النهاية ـ توليفة صحيحة لما يجب أن يكون، وأعتقد أن هذا جزء من فكر الرئيس مبارك، فهو لم يخلق عداءات مع فترات تاريخية سابقة، وأحدث أمام الجيل الجديد نوعا من المصالحة، وأذكر أنه فى إحدى خطبه ذكر كل من أحمد عرابى، ومصطفى كامل، وسعد زغلول، ومصطفى النحاس، وكان هذا ضربا من المستحيل فى سنوات قريبة سابقة.

هذا الرجل أتى إلى مصر بلا عداء تاريخى مسبق لفترة معينة، وبالتالى قدم للأجيال الجديدة مصالحة تاريخية تحميهم من التلوث السياسى، ومن العداء المرير مع أجزاء من تاريخهم.

مصالحة مبارك سمحت له بأن ينتقى أفضل ما فى كل عصر، فعبد الناصر كانت معظم أفكاره النظرية صحيحة للغاية، والسادات كان جزء كبير من ممارساته صحيحة ويتسم بالذكاء وسعة الأفق، فلماذا نحرم التجربة من متعة الاستفادة بهذه الإيجابيات.

هى اجتهادات فى الرؤى.. واختلافات فى التفاصيل، ولا يوجد فى تاريخ مصر الحديث حاكم خائن.

إن خروج قيادات مصر من القوات المسلحة منذ ١٩٥٢، كان صمام أمن للوطنية المصرية، لأن الجيش المصرى هو المدرسة الكبرى للوطنية فى التاريخ المصرى المعاصر، وبالتالى لا يجب أن يكون هناك إحساس بالإدانة أو التجريم لفترات حكم معينة فى هذه الحقبة.

هذا هو ما اعتدت أن أقوله للجيل الجديد، وأحاورهم فيه، وأجيب أسئلتهم ولست - فى ذلك - ممثلا للحكومة أو لاتجاه معين، وإنما أنا أتكلم بمنطق المصرى العادى الذى يريد أن يضع الأمور فى نصابها، وأتحرر - فى الغالب - من قيود الوظيفة، وأعلن ذلك فى بداية كل لقاء.

ويجب أن أذكر للرئيس مبارك سماحته بأنه أعطانى هذا الحق حتى وأنا أعمل معه ثمانى سنوات كسكرتير له لشئون المعلومات، وأتحدى إن كان حاكما آخر قد فعل نفس الشىء.

وحين تركت موقعى إلى جواره، وجدت أن الأبواب مفتوحة بنفس القدر، وربما أكثر من دون ملاحقة أو متابعة أو حجر.

تلك قيمة حقيقية فى الحاكم وهى أمر غير مسبوق فى تاريخنا الحديث يجب أن ننميه ونستثمره.

وهذه هى - بالضبط - العناصر التى أحدث الناس فيها فى معرض الكتاب فى إطار من المصالحة الوطنية التى تسم العصر الذى نعيشه.

مبارك !

- **يبدو الرئيس محمد حسنى مبارك أكثر زعماء مصر إيمانا بفكرة الحوار، وفى ظنى أن المثقف المصرى لم يتحصل - عمليا - على فرصة لمناقشة الحاكم ومحاجته، بمقدار ما تحصل فى عهد هذا الرئيس، فى تصوركم هل كانت الإدارة فى مصر متمثلة لنفس روح الرئيس فى تبنى هذا الحوار فى مناسبات مختلفة؟.. ثم كيف تنظرون إلى اشتراك المثقفين العرب فى مناقشة أمور تخص مصر حين تتسع ساحة الديمقراطية المصرية لهم وتستضيفهم؟ وهل تعطون وزنا للحساسية التى يبديها بعض المصريين تجاه هذا الاشتراك، الذى يحركه ارتباط كل العرب بمصر من ناحية،**

وغياب الديمقراطية فى بقاع كثيرة من عالمنا العربى من جهة أخرى؟

○سأعطيك صورة مقربة للرئيس مبارك، قد لا تكون واضحة فى أذهان الكثيرين، فالرجل رغم جديته الشديدة، وصرامته التى ألزم نفسه بها منذ شبابه، يتمتع بقدر كبير من سعة الصدر لأفكار الآخرين، ويستمع إلى الرأى الآخر، ويقلب الأفكار بينه وبين نفسه لفترة طويلة ويتأملها، ولديه صفة أعتقد أنها غير مصرية، ولكنها صفة طيبة، وهى أن علاقته بالزمن علاقة هادئة، لأننا شعب عجول يندفع فى قراراته واستنتاجاته، معتمدا على ذكائه، إلا أن فى مبارك خصيصة آسيوية من ثقافات الآسيويين القديمة، وهى التى تجعل علاقته بالزمن علاقة هادئة، بحيث يجعل نفسه سيدا للزمن وليس العكس، بمعنى أنه يعطى نفسه الوقت الكافى للتفكير فى الموضوع الواحد، حتى يصل إلى الرأى المعتدل فيه، ولديه فرامل تاريخية تستطيع أن توقف الاندفاع نحو الخطر.

ثم إنه لا يعتقد فى نفسه أن شخصيته مختلفة، فيرى ذاته بمثابة الرجل العادى Lay-man، الذى يفكر مثل غيره، ويتخذ قرارات مثل غيره، وليست لديه تصورات الزعامة الضخمة التى كانت لدى جمال عبد الناصر، كما ليست لديه تصورات الأحلام التاريخية الكبرى التى عاش فيها السادات.

لديه - فقط - إحساس بحاجة المواطن العادى إلى الحياة، وإلى الوضع الأفضل، والاهتمام بالتعليم والصحة.

هو غير مغرم بالفلسفات المعقدة والعبارات المبهمة، يحب لغة الأرقام، يفضل الإحصائيات، ويميل إلى الوصول للهدف المباشر، وفى تفكيره يفضل طرح القضية بشكل محدد وواضح، ليس فيه اللغة الفضفاضة، أو التعبيرات المائعة. ولذلك، فأنا أعتقد أن قدرته على النقاش تنبع من صفات شخصية فيه، وليست مسألة مفتعلة أو مكتسبة ولكنها تأتى طبيعية.

لديه مساحة داخلية فى ذهنه تسمح له بالحوار مع الذات قبل الحوار مع

الآخرين، ولقد لاحظنا أنه راجع كثيرا من الأمور ومجرياتها على مستوى الوطن، وأعاد النظر فيها بهدوء.

ولكنه لا يقبل الضغوط أيا كانت، وعلى كل القوى المتعاملة معه أن تدرك ذلك.

يخطئ من يتصور أن الصوت العالى أو الضغط فى اتجاه معين سوف يؤثر على الرئيس، هذه قضية محسومة أمام كل من تعامل معه وهى مفتاح شخصيته.

وأستطيع أن أقول: إننى تعلمت منه - على المستوى الشخصى - فى كثير من الأمور، وبالذات هذا القدر الكبير من الموضوعية الذى يجعله يفصل بين حبه لشخص على المستوى الإنسانى، وتقييمه لأدائه على مستوى آخر، وهو لايسمح بالاختلاط بين الأمرين حتى عند أقرب المقربين إليه، وتلك صفة غير عادية لم أرها فى كثير من الزعامات فى تاريخنا الوطنى.

● هذا عن الرئيس.. فهل تعتقد أن عناصر إدارته تمثلت صفاته وأسلوبه، بحيث أصبحت مطبوعة بهما؟

○ لا أستطيع أن أزعم - أبدا - أن الإدارات كانت فى أدائها على مستوى أداء الرئيس نفسه، ولدى أمل كبير فى حكومة الدكتور الجنزورى لأنها تبدو أكثر الحكومات المصرية - حتى الآن - قربا من فكر الرئيس، فالرجل خدم معه ١٥ عاما قبل أن يتولى رئاسة الحكومة، وفى موقع مهم يتصل بالتخطيط القومى عموما، مما أتاح للدكتور الجنزورى أن يكون متميزا ومدركا لحدود التصرف والقدرة عليه، بما يمكن تسميته أنه انعكاس لمدرسة مبارك السياسية.

هناك إحساس - فى ظل حكومة الجنزورى - بأن العجلة تدور، بعد أن كانت أصيبت بقدر كبير من التوقف والجمود، وقد لاحظت أن نظرية الثواب والعقاب قد بدأت تعمل تأثيرها على مستوى هذه الإدارة، كتنحية مسئول أهمل، والدفع بمسئول أكفأ، وكل هذه أمور مهمة جدا فى المجتمع المصرى، لأن مصر دولة

كبيرة، برغم كل ظروفها الاقتصادية، ودولة ثقيلة التراث كبيرة التجربة، وليست دولة صغيرة تحتاج إدارتها إلى نمط عادى، فهى تحتاج إلى حشد كبير من معطيات متعددة، فهى ليست دولة كبرى أو دولة صغرى، ليست دولة غنية أو دولة فقيرة، إنها دولة ذات نهج خاص وطابع فريد، وإدارتها ليست قضية سهلة.

. . . .

أما عن الجانب الثانى من سؤالك المتعلق بمشاركة العرب لنا فى ديمقراطيتنا فأنا ألاحظ ذلك، وأسعد كثيرا حين أجد كاتبا عربيا يكتب فى الشئون المصرية، ويرون فى تحولات السياسة فى مصر مؤشرا لتحولات مماثلة قد تلحق بمجتمعاتهم، وأنا أشعر بأن وجود مثل هؤلاء المثقفين العرب هو جزء من الوجود المصرى ذاته، وأنهم بدأوا يدركون أن مصر ليست كيانا منفردا ولكنها جزء أساسى من جسد الأمة العربية، وأن أية صحوة، أو أى إخفاق يصيب هذا الجسد، يؤثر ـ بالضرورة ـ فى الأمة العربية كلها.

تجربة مبارك الديمقراطية فى مصر رائدة، وهى قابلة للنقل فى العالم العربى، ودخول العرب فى ساحتها هو إيجابية أتحمس لها باستمرار.

نخبتان !

- **وردت فى حديثك فكرة محورية تتعلق بجمع النخبة بين الثروة والثقافة، وقد ذكرت ذلك فى معرض المقارنة ما بين النخبة التى نعرفها فى العالم الغربى، وبين النخب التى ظهرت فى تاريخ مصر، وفى تاريخنا العربى. وواقع الأمر أن لدينا نخبتان، إحداهما هى (نخبة الثروة المفاجئة) والأخرى هى (النخبة الثقافية)، وهناك فاصل واضح بين النخبتين، ولكن ـ فى ذات الوقت ـ هناك ما يشبه التنظيم المصلحى، بمعنى وجود مجموعات من رجال الأعمال تجمع كل واحدة منها حولها مجموعة من**

المثقفين ومجموعة من الإعلاميين، وتتحرك على سطح الحياة العامة لحماية مصالحها، وتغيب القضية القومية فى هذا التحرك، كما تغيب المصلحة الوطنية.. ما هو تقييمك لمثل هذه القضية؟

○ أنا أحييك على هذا السؤال ـ يا دكتور عمرو ـ وفى هذا الإطار فأنا أتأمل ـ حين أحضر الأفراح الكبرى فى مصر ـ هذه التجمعات التى تضم رجال الأعمال بثرائهم، ومجموعات المثقفين باهتماماتهم، كما أرى أن هناك قدرا من التزاوج يصل إلى حد الاندماج بين الجماعتين، والسبب هو أن هناك رغبة فى التعايش، فالمثقفين ـ فى عمومهم ـ وصلوا إلى مستوى مادى معين، وأصحاب الثروة يتطلعون إلى أن يزينوا حياتهم بالرموز الثقافية، وأحيانا بالرموز السياسية.

● **ولكن هذا أقرب إلى فكر الإقطاع الأوروبى منه إلى فكر الرأسمالية الأوروبية..**

○ بالضبط، وأنا لم أقل أنه نسخة من الفكر الرأسمالى، فهو نموذج خاص جدا لدينا فى العالم العربى، دافعه تطلع أهل الثروة إلى السلطة بالتقرب من الحكام، وإبداء الرأى، وتقديم المعلومات، وقد حدثت ظاهرة مشابهة لدينا فى مصر، حين سيطرت على أهل الثقافة وكبار المتعلمين رغبتهم فى خدمة أصحاب رؤوس الأموال، وأيضا ظهر لدينا اهتمام أصحاب رؤوس الأموال بقضايا الثقافة والسياسة، لأن لديهم إحساسا بأن المؤشرات السياسية تتحكم فى المستقبل الاقتصادى، وبالتالى أصبحت عملية الاتصال بين مثلث السياسة والثقافة والاقتصاد قائمة فى مصر، وأعطيك نموذج د. إبراهيم كامل، وهو نموذج أعرفه عن قرب، فهو أستاذ جامعى فى كلية التجارة، ورجل أعمال كبير، ورئيس ما يمكن تسميته بمجلس رجال الأعمال المصريين/ الأمريكيين، وفى نفس الوقت يرعى كثيرا من النواحى السياسية والندوات، ويؤمن بالوظيفة الاجتماعية لرأس المال.

وهذا يعنى أن فكرة النخبة فى مصر لا تتجزأ، حتى لو كانت دعائمها مالية أو ثقافية أو سياسية، ففى النهاية لديها إحساس بضرورة فتح القنوات على بعضها

بعضا، فى علاقات وثيقة وتعايش كبير، يعيد إلى الأذهان شكل المجتمع اللبنانى فى بعض مراحله فى الخمسينيات والستينيات، وهى ظاهرة ليست سيئة، ولكنها تعكس الإحساس العام بأن الكل فى قارب واحد. وأخطر من ذلك أن هذا القدر من الفلكلور الاجتماعى قد يكون تعويضا عن المشاركة السياسية، ولذلك تجد الإقبال على عضوية مجالس إدارات النوادى أكثر من الإقبال على عضوية البرلمان.

- **د. مصطفى.. أحاول أن أمنع نفسى من الاستسلام «لنداهة» هذا الحوار.. ولكننى ـ فيما يبدو ـ فشلت. ومن هنا دعنى أطرح عليك فكرة أنك حدثتنى عن تماسك النخب المصرية الجديدة ورغبتها فى التعايش والاندماج فيما بينها، ولكن ماذا عن علاقة هذه النخب بوطن بأكمله؟.. ماذا عن الحوار الغائب بينها وبين الجمهور أو بين «الناس الكتير»؟**

○ كل ما نتحدث عنه وما أتحمس له أمامك، لا يعبر إلا عن شريحة صغيرة فى المجتمع لا يصل صوتها إلى أحد.. بلد نسبة الأمية فيها ٥٠٪ أو يزيد، بلد فيها كثير من المتناقضات الاجتماعية لا يمكن أن تخترقها أصوات هذه النخبة.

أنا أشعر ـ أحيانا ـ أن هناك مصران، وليست مصر واحدة، (مصر النخب حول السلطة)، و (مصر الشارع). ولعل هذه الهوة هى التى صنعت ـ فى بعض المراحل ـ مساحة تحركت فيها قوى التطرف السياسى والاجتماعى.

أنا أذكر حين تخرجت من الجامعة منذ ثلاثين عاما، أن أحلامى كانت واضحة، والقدرة على تحقيق هذه الأحلام كانت ممكنة. أما الآن فالأمر يبدو مستحيلا، فالخريج لا ينتظره عمل محدد، والصورة أمامه غائمة وضبابية، والإمكانيات محدودة، فلا هو قادر على الحصول على شقة أوسيارة أو زوجة، ونحن مكبلون بتقاليد اجتماعية تضع أمام هذا الخريج أنماطا وأرقاما قياسية لا يمكن الوصول إليها.

ومن ثم تبدو هذه الصورة القاتمة مبررا أمام البعض، للانحراف فى تيار

obeikandl.com

الإدمان، أو تيار التطرف للهروب من الواقع.

أين النخبة الفوقية من هذا كله؟!

إننى أدعو هذه النخبة إلى النزول إلى الشارع، وأن يتوقف منطق الاكتفاء بالمساهمة فى بعض المشروعات، فهذا ينطوى على قدر كبير من التعالى، مالم يصحبه حوار مباشر مع الناس.

- **كيف تنزل هذه النخب إلى الشارع؟.. وما هى مصلحتها فى أن تنزل إلى الشارع؟.. ثم هل هى واعية بمصلحتها فى أن تنزل إلى الشارع؟**

○ حين تدرك هذه النخب أن المجتمع وحدة واحدة، وأن الثراء لن يرتب قيمة لصاحبه إذا كان الشارع منزعجا، وأن الوظيفة التاريخية للرأسمالية فيها مضمون اجتماعى، وأن هذا المضمون ليس إحسانا Charity، ولكنه ينبغى أن يقترن بوسائل وأساليب ليس فيها أى تعال، مثل طريقة السيدة يسرية ساويرس سيدة الأعمال التى تنزل إلى مناطق جامعى القمامة، وتتبرع وتقيم المشروعات وتدخل فى حوارات مع الناس ولها شعبية هائلة فى هذه المناطق، من دون تطلع لدور سياسى أو موقع انتخابى.

على النخب أن تنزل إلى الإنسان العادى، وهذا سوف يكون تحولا حقيقيا يشترك بموجبه الجميع فى صياغة مصر واحدة، وليس مصرين، أو عدة أمصار. وهذا هو الحل الوحيد الذى يسمح لمصر المستقبل بالاستقرار والاستمرار.

- ١٩٩٧ -

❑ ❑ ❑

obeikandl.com